الفصل الثاني

لست وحيدًا في مسرح الوجود!

لست وحيدًا في مسرح الوجود!

ليس الهدف من الغوص في أحاديث النفس تطبيعك على أمر واقع لا حيلة لي ولا لك معه، ولا لإثبات هدايتك أو ضلالك، ولكن ورب السماوات السبع ورب العرش العظيم إنه لإخبارك بالحق والحقيقة وبأنك لست وحدك أبدًا في مواجهة هذا الكم من التساؤلات الفطرية الطبيعية، فهدئ من روعك، واستمتع بنعيم الإيمان الذي تحمله، واشكر المنعم على ذلك، وتذكر دائمًا أنك خلقت عاقلًا يفكر بعقله، ومن ثم فتلك نتيجة طبيعية حتمية للعقل الذي تحمله، فانعم بالطمأنينة مع ربك الرحمن الرحيم ودع عنك هذا القلق، واعلم أنه يستوي عند مواجهة هذه التساؤلات من يملك الحد الأدنى من الأهلية والفطنة مع من يملك أعلى درجات الذكاء، فالكل عاجز أمامها، كما سنرى من شواهد التاريخ واعترافات عباقرة العالم بأنهم قاصرون بحكم ناموس خلقهم ووجودهم عن معرفة ما لم يخلقوا لمعرفته مهما كانت درجة تحدي المكابرين والرافضين لهذه الحقيقة.

لقد كان أبو حامد الغزالي[1] في أول حياته أنموذجًا حقيقيًّا لأمثاله من بعض الشباب والشابات المتسائلين فطريًّا وبقوة مع أنفسهم، المتلمسين للإشارات الإرشادية على طريق اليقين المنشود، يقول عن نفسه: «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد الصبا، إذ رأيت صبيان اليهود لا يكون لهم نشوء إلا على التهود، وصبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصير، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام»[2].

---

(١) هو أبو حامد الغزالي ابن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (١٠٥٨- ١١١١م) الموافق (٤٥٠- ٥٠٤هـ) ولد بقرية غزالة في خراسان وهو عالم وفقيه وفيلسوف من أشهر الفقهاء الذين قرؤوا في الفلسفة والمنطق كان حريصًا على العلم والبحث عن الحقيقة وقد اتبع منهجًا عقليًّا وهو صاحب العبارة الشهيرة: «الشك أول مراتب اليقين» والتي لا يوافقه عليها من يؤكدون أن اليقين الفطري يحصل بفضل الله دون حاجة للشك، وقد تأثر بفلسفته الفيلسوف الفرنسي ديكارت بعد تسعة قرون: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص١٠٢).

(٢) المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت، ص٨١.

وانطلاقًا من هذه المنهجية الخاصة بالغزالي، فقد تدرج في خوض غمار الفكر، وجاهد نفسه ثابتًا حتى أصبح فيما بعد حجة الإسلام في درء الشبهات والرد على المشككين والمنطقيين، لقد بدأ القراءة في الفلسفة عام ٤٨٤هـ وهو في الثلاثينيات من عمره، فغيرت أفكاره، وأدخلته في أزمة طارئة جعلته ينظر بريبة إلى تراثه الموروث، حاله كحال الكثير من الناس الذين لا يفصحون عن الصراع الصامت بينهم وبين ذواتهم تأدبًا مع الله، والذين يحتاجون إلى إعلان حالة الاستنفار، كما أعلنها الغزالي، وتجاوز الأزمة بالبحث العميق، إذ لا يكفي مجرد الاقتراب من أطراف علم الكلام والفلسفة على عجلة من الأمر دون الغوص في أعماقه، لكن سرعان ما يتبين أن هذا الشك عند الغزالي كان بمنزلة جرس إنذار له نتج عنه خوف ورعب دفعه بقوة إلى النظر العقلي الحر الذي قاده إلى يقين إيمانٍ تجاوز شخص الغزالي إلى أن استنار منه غيره.

وقد وصف الطريق إلى ذلك اليقين بقوله: «إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال والحيرة، ولا خلاص للإنسان إلا بالاستقلال»[1]، وقد كان وصفه للفلاسفة الذين حيروه في بداية قراءته لهم في غاية الدقة، إذ قال في وصفهم: «إن الفلاسفة يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ولا يقين في الأمور الإلهية، لكنهم يوهمون الناس أن علومهم الإلهية متقنة البراهين مثل العلوم الحسية والمنطقية»[2].

وهذا الذي حدث للغزالي في بداية حياته قد يحدث مع أي إنسان ذي بصيرة يتعمق في التأمل والتفكير في بداية الطريق، ولا يسمى ذلك شكًّا بمعنى الشك المحير، بقدر ما يمكن وصفه (بوخزة) تنبيه ويقظة كي يأخذ الإنسان حذره، ويتحصن إيمانيًّا، ويحتاط من مواضع الخطر، ويحكم السيطرة على إدارة الجدل بينه وبين نفسه في ذلك السجال السري على المسرح الداخلي، ومما يؤكد ذلك الخاتمة التي ختم بها الغزالي حياته، حيث

(١) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، (١٩٨٤م)، الجزء الثاني، ص٨٣.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٨٤.

تفرغ لتلاوة القرآن ومصاحبة القلوب الطيبة والجلوس للتدريس والصيام والتهجد، إذ لم يجد في سواها من العلوم ما يستحق أن يختم به حياته[١].

وهكذا بمجرد قليل من التأمل ستكتشف أنك لست وحدك أبدًا أمام أمر قدري كان ظاهرًا على مر التاريخ البشري، ومرصودًا في مختلف الحضارات وأتباع الأديان المختلفة، ومن غير المقبول أن تظلم نفسك، فتجرمها وحدها أمام ذاتك لمجرد أنك إنسان طبيعي تهرول بهذا الشغف المعرفي الإيجابي نحو الحقيقة، باحثًا عن أسباب الطمأنينة، وقلقًا على ما معك من اليقين خوفًا عليه، يقول (بسكال)[٢]: «هناك صنفان من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء، وهم الذين يخدمون الله جاهدين؛ لأنهم يعرفونه، والذين يجدّون في البحث عنه؛ لأنهم لا يعرفونه»[٣]، ويقول أيضًا: «نحن نعرف وجود المتناهي وطبيعته؛ لأننا متناهون وممتدون مثله، ونعرف وجود اللامتناهي، ونجهل طبيعته؛ لأنه ذو امتداد مثلنا، لكن ليس له حدود مثلنا، وعليه فوجود الله لا يدرك بالعقل ولا بالقلب ولكن بالوحي أو الدين»[٤]، وقد اختصر (رينيه ديكارت)[٥] رحلته الطويلة مع الشك أن قال في نهاية المطاف: «إن الله حقيقة، وكامل، ولا يمكن تصوره»[٦].

---

(١) تهافت الفلاسفة، أبوحامد الغزالي، المكتبة العصرية، صيدا، ص٢٦.

(٢) بليز بسكال Blaise Pascal (١٦٢٣- ١٦٦٢م) الموافق (١٠٣٢- ١٠٧٢هـ) رياضي ومفكر فرنسي ولد في كليمرون في فرنسا كان والده عالمًا بالرياضيات وكان يبكي من علامات الذكاء على ابنه الصغير النابغة فعاهد نفسه أن يعلمه بنفسه وألا يعلمه شيئًا حتى يبن له فائدته يرى أن وجود الله لا يعرف إلا بالوحي وهو صاحب عبارة: «أيها الإله العادل إن العالم لم يعرفك ولكني عرفتك»: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٣٥٣، وتاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص٩٠).

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٣٢.

(٤) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، الجزء الأول، ص٣٥٥.

(٥) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٥- ١٦٥٠م) الموافق (١٠٠٣- ١٠٦٠هـ) فيلسوف فرنسي كبير، ويعدّ رائد الفلسفة في العصر الحديث وهو الأب الروحي للثورة الفرنسية وكان عالمًا بالرياضيات ابتكر الهندسة التحليلية ومن أشهر كتبه كتاب (التأملات) ويوصف بأنه فيلسوف التقليد الذاتي والمثالي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٤٨٨).

(٦) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٥٩.

وأقوال الفلاسفة كثيرة في تقرير هذه الحقيقة وبيانها، ومن حقنا الاتفاق أو الاختلاف معهم، لكننا لا نحتاج إلى هذه الشواهد منهم في هذا السياق، والسبب أننا وجدنا أن الرسل الموصولين بالله عن طريق الوحي، والمتصلين بملائكته البررة، هم يسألون أيضًا كما نسأل، ويجهرون بسؤالهم، بل ويسألون الله سبحانه وتعالى مباشرة! نعم، يجب أن تدرك هذه الحقيقة بأنهم لا يسألون الخلق كما هو الحال معنا، بل يسألون الخالق الأعظم الذي اصطفاهم، وأوحى إليهم علانية، وأيدهم بآيات تتلى وبمعجزات لا تقبل الجدل، وبالطبع فلا مزايدة على مشروعية تساؤلاتهم؛ لأنهم يفكرون تفكيرًا بشريًّا لا يخرجهم قطعًا من مقام الاصطفاء عند الله، ولا يقاربهم من درجات الشك معاذ الله؛ لهذا تحمل مني - أيها القارئ الكريم - تكرار التذكير والتطمين عندما أقول لك: لا تقلق أبدًا، واسأل، وتساءل بحثًا عن الحق وبصوت مرتفع وادع الخالق أن يهديك ويحفظك على الصراط المستقيم، فأنت بخير، أنت تبع الرسل وتقتدي بهم، وربنا وربك الرحمن الرحيم.

*****

الأنبياء يسألون الله!

الأنبياء أنفسهم سألوا الله، وتساءلوا كما تساءل غيرهم من البشر، هذه ليست ادعاءات عابرة بهدف التعزية والمواساة بقدر ما هي كشف لحقائق ناصعة وثقها الوحي نفسه، والوحي نور يوثق للإيمان، ويدعو إليه، ولا يقدم للشك، وإنما يحذر منه، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بالأمة القانت الحنيف المسلم الأواه الحليم؛ لقوة إيمانه ويقينه، وجد نفسه في لحظة ما يسأل ربه علانية: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إنه يسأل ربه وهو نبي يوحى إليه! إنه يسأل سؤالًا صريحًا واضحًا معلنًا لا لبس فيه ولا غموض، إنه يسأل سؤالًا جعله ربي وربك قرآنًا يتلى علينا مدى الحياة البشرية، بل نؤجر على تلاوة حروفه، ونستخلص منه شفاء لما في صدري وصدرك، لقد جاءت الإجابة الإلهية سلسة هادية بعيدة عن التعنيف والزجر مطلقًا، بل تقدم بين يديها ببلسم طمأنينة وأمان بأن هذا لا يتناقض مع الإيمان، ولكن إعلانه ضروري:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] والله تعالى وحده هو من يعلم صدق إيمان إبراهيم، ولكنه سؤال للهداية والتوجيه لمن بعده بأن هذا السؤال طبيعي ومشروع، وليس قادحًا في الإيمان، ثم أحاله إلى التجربة الحسية لاستكمال مقومات الطمأنينة: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وحتى بعد أن تحقق هذا البرهان الحسي القاطع في الاستدلال، وتحققت الطمأنينة المنشودة، كان إبراهيم عليه السلام محتاجًا أيضًا إلى مزيد من التثبيت، فجاءه الأمر من ربه ليتعاطى مع كل ما يستجد أمامه من تساؤلات قادمة وما أكثرها باستذكار عزة الله وحكمته: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، بعد أن رأيتها أتتك سعيًا يا إبراهيم، وثبت لديك أن النواميس والقوانين في الوجود ليست محصورة فيما يعلمه الإنسان، ويدركه حسيًّا في دنياه هذه، وأن القدر الكوني ليس محصورًا بنظام وقوانين الدنيا التي منها انتقال الكائن الحي من الحياة إلى الموت فقط، اعلم أن هناك قوانين ونواميس كونية أخرى فيها ينتقل الكائن من الموت إلى الحياة، تمامًا كما ترى نواميس حياتك الدنيا تنقل الأحياء إلى الموت، فالقادر على هذه قادرٌ على تلك، وتلك حياة أخرى لها أجل، فاجعل هذه التجربة معيارًا لكل ما يعترضك في حياتك، ولا تطلب مزيدًا من الأدلة الحسية، ولا تنتظر أن تتكرر مع كل تساؤل، وكما رأيت إتيانها لك سعيًا بعد أن ذبحتها، وقطعتها خلاف المألوف في حياتك، فإن عالمًا آخر بل عوالم أخرى لا تعلمها، ولا تعلم قوانينها لكن الله يعلمها قائمة، أو ستقوم بأمر الله واختياره، لها أيضًا نواميسها الخاصة التي قد لا تتفق أبدًا مع عالمك الدنيوي، فآمن واستسلم، واعلم أنك أمام خالق عزيز لا يعجزه شيء ولا غالب له، وحكيم يضع الأشياء في مواضعها، خطاب لإبراهيم، ولكنه للناس جميعًا.

أما موسى عليه السلام فقد رفع سقف المسألة إلى أقصى حد ممكن أن يطلبه مخلوق من خالقه، حين طلب من الله أن يمكنه من رؤيته ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولأن البشر لم يخلقوا قادرين على استيعاب ما فوق قدراتهم من المخلوقات من عميق أسرار الخلق كبيرها وصغيرها، فكيف والأمر طلب رؤية خالق المخلوقات كلها، طلب

كبير جدًّا وتحقيقه لا يتصور بحال في الدنيا، جاءه الجواب من الله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأنت يا موسى، في هذه الدنيا مخلوق ضعيف، وكل ما تملكه من قدرات بشرية غير مؤهلة للنظر إلى الخالق، ولكن انظر إلى مخلوق مثلك له صفات أقوى منك، لم يثبت هو الآخر على الرغم من أنه أشد منك بأسًا وصلابة وثباتًا، وهو الجبل لتقريب الإجابة: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإذا لم يستقر الجبل مكانه فكيف بعين البشر، وما هم عليه من قدرات محدودة، وهذا الذي حصل لجبل جلب الصعقة إلى موسى، فأغمي عليه من هول ما رأى من مخلوق مثله، فكيف له برؤية الخالق ﷻ؟! إنها آيات بينات لأولي الألباب تخاطب العقلاء مؤكدة على هذه القاعدة المحكمة (عدم إدراكنا للشيء لا يعني عدم وجوده)، فسبحان مَنْ وجودُه لا يحتاج إلى إدراكنا.

لم يقتصر الأمر على إبراهيم وموسى، فهذا سيد الأولين والآخرين وإمام المؤمنين والمتقين وصفوة الخلق أجمعين محمد ﷺ يخاطبه القرآن بنص صريح لا يحتمل التأويل، بعد أن قص عليه من قصص الأنبياء من قبله، وكرر أنباءها في سورة هود تكرارًا عجيبًا مثيرًا جعله ﷺ يصف ذلك بقوله: «**شيبت بي هود وأخواتها**»[1]، من قوة تأثره بالخطاب القرآني المكي، ومع هذا لم يكتفِ الوحي بذلك، بل خاطبه بعدها منبهًا ومذكرًا بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. ثم قال له أيضًا في سورة يونس وبعد تكرار تلك القصص ولكن بعرض مختلف: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

تأمل معي أيضًا خطاب التثبيت الرباني الذي أنزله الله على رسوله محمد بن عبدالله ﷺ، يقول له ربنا عن الوحي الذي يوحيه إليه مباشرة: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، ويذكره بأن هذا

---

(١) الحديث: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله شِبْتَ! قال: «**شيبتني هودٌ وأخواتها**». أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦-٢٨٧) وإسناده حسن.

الوحي ما هو إلا استمرار لمن كان قبله من المرسلين: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣]، لقد كان النبي العظيم، وهو المصطفى في حاجة إلى كل هذا الخطاب التثبيتي وغيره من الخطابات المطمئنة له، بل يصل الأمر أحيانًا إلى ذكر ما يستدركه القرآن عليه، ففي موضع آخر يقول الله ممتنًّا عليه بتثبيته وحفظه من الركون لأهل الباطل: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فهل كان النبي العظيم في ضعف أو شك أو حيرة من أمره حتى تتنزل عليه هذه الآيات الشافيات له ولنا من بعده؟ حاشاه ﷺ، لكنه تأكيد أن هذا مقام الاستبيان وضرورة التثبيت لا يمكن المخاطرة في تأجيلها وكتمانها، وأن الأمر الذي قد تتذمر منه أحيانًا، وتتردد في طرحه للنقاش بهدف الحيطة من تعكير صفوة الحق، إنما هو أمر طبيعي فطري ضروري لكي يوصلك إلى الحق المبين، وأن ربنا الرحمن معنا دائمًا نحبه ويحبنا، فلن يضيع إيماننا وهو أرحم بنا من أنفسنا ووالدينا والناس أجمعين، (فدع القلق، وتمتع بالإيمان).

وكما كان الحال مع إبراهيم عليه السلام، حين أرشده الله بعد البرهان إلى مزيد من الإيمان والتقوى، وأراه ملكوت السماوات والأرض بهدف اليقين: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] تكرر المشهد أيضًا مع أشرف الخلق ﷺ، فبعد هذا الاصطفاء له، والوحي المتنزل عليه، والملائكة المؤيدين له، وتذكيره بقصص الأنبياء التي جاءته، وتكرارها عليه للتثبيت والمواساة، تطلب الأمر أيضًا أن يتبعها الرحمن بجرعة تثبيت وتطمين إضافية (خاصة) حين خاطبه بعد كل ذلك بقوله: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] هذه الآية التي تهز القلوب والوجدان هزًّا، والتي تم اقتباسها لتكون عنوانًا لهذا الكتاب، بل الكتاب كله جزء مما يمكن أن نستنبطه من هذه الآية العظيمة وحدها، إنها كلام الله أولًا، وأمر الله لنبيه ثانيًا، والتأكيد أنه الحق ثالثًا، والتأكيد أيضًا بوصفه بالمبين، والخطاب لأفضل الخلق أجمعين، فيا أيها المؤمن المحب، تفكر وتدبر هذا الأمر جيدًا، فلست وحدك أبدًا، وإذا كان الأمر هكذا طبيعيًّا جدًّا مع رسل الله وصفوة خلقه المؤيدين بالوحي والملائكة، أفلا يكون طبيعيًّا مع من هم دونهم من عامة الناس أمثالنا

الذين سوف تسعهم رحمة الله، والذين ما كان الله ليضلهم بعد إذ هداهم، وما كان الله ليضيع إيمانهم فضلًا منه ونعمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنها البشرى الصادقة لك والحال كذلك بالأمان والتهنئة على ما معك من يقين وإيمان، وبأنك مع الأمة جميعًا، ولست وحدك فيما ترى وتسمع وتحس حولك، بل أنت هكذا لأنك هكذا بطبيعتك التي خلق الله (إنسان)، مثلك مثل بقية البشر بمن فيهم الأنبياء المصطفون، لكننا في حاجة جميعًا إلى التذكير بهذا الخير والحق لإزالة بعض الغبش والغشاوة، وتجديد رسم الصورة الإيمانية الواثقة أمامنا مرة أخرى، ولنعلم أنه مهما اجتهدنا في إيماننا، فلن نصل إلى يقين مطلق في الإدراك العقلي مثل ما نصل إليه بالإدراك الحسي، يعني مهما بلغ إيماننا فلن ندرك حقيقة الملك جبريل وشكله وصورته، أو حتى الشيطان أو الشياطين، أو عذاب القبر ونعيمه، أو نتخيل حال الجنة والنار كما هي في الحقيقة، يستحيل تخيل ذلك في متناول التصور البشري الكامل، كما لو أننا نرى بحواسنا الخمس شكل النخلة والجبل والوادي والفيل، إننا نتحدث عن عوالم فوق قدراتنا، إلا ما أخبرنا عنها الوحي فقط، فلننتفض من لحظتنا هذه على الوساوس والأوهام، ونخلص من هذه الأعباء الفكرية الثقيلة الناتجة من خلل في التصور وقصور في التفكير، فلم نكلف بأكثر من الإيمان بالغيب، أي التصديق بالخبر، وانتظار تأويله يوم يأتي تأويله يوم القيامة فقط.

إنه لا تعارض بين هذا الإيمان المجرد وبين محاولات فهم ما يمكن الإحاطة به من الوجود حولنا وفق ما يسره لنا من أدوات حسية وعقلية، ففي محيطنا أعراف وحقائق وجودية يقينية بحتة، ممكن أن تكون مفاتيح لمزيد من المعرفة الإنسانية الممكنة في الدنيا فقط، وقد علمها الإنسان من فطرته[1]، ويمكن تصنيفها إلى أربع فئات: الأولى، الأوليات العقلية المحضة التي أصبحت يقينًا محضًا، مثل قولنا: إن الأربعة أكبر من الثلاثة، والشيء لا يكون قديمًا وحديثًا معًا، والثانية، محسوسات واضحة جدًّا كاستدارة الشمس والقمر ونورهما، والثالثة، المحسوسات مع قياس خفي، وتسمى المجريات، كمعرفتنا أن الضرب يؤلم الحيوان يقينًا؛ لأننا نشعر بالألم عند الضرب، بينما لم نشعر

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦٤٠.

بشعور الحيوان عند ضربه، والرابعة، يقينيات تم استنباطها بواسطة الإنسان كقولنا: الاثنان ربع الثمانية، وهكذا[1]، وهذه الأصناف كلها متعلقة بقوة العقل وإدراك الحواس معًا، وذلك لا يمكن تطبيقه ولا اتباعه للوصول إلى يقين الإيمان بالغيب الذي هو مناط الابتلاء للإنسان في هذا الوجود، فكان المطلوب من الإنسان يقينًا من نوع آخر، لا تنطبق عليه هذه المسلمات الدنيوية، إنه التصديق المطلق لخبر الوحي مع الاستئناس بالآيات والبراهين الحسية للتقريب والفهم، إن تيسر ذلك دون الاعتماد عليها وحدها، مع إسناد كل ما استعصى فهمه على البشر إلى الله وحده انتظارًا للقائه ﷻ في يوم تصبح جميع الغيبيات المحيرة للعقول في الدنيا يقينيات شاهدة واضحة مدركة بل أكثر يقينًا من تلك الأصناف الأربعة السابقة، وهذا خيار لا بديل عنه.

*****

لست شريرًا وغيرك خيّرٌ!

عندما تطمئن إلى إيمانك هذا، فلا بد أن تدرك نعمة الله عليك أن منحك هذه الشجاعة والصبر في حياتك وأنت وحدك (تتقاتل مع الفكر والضمير داخليًّا) للدفاع عن حصن الإيمان في مواجهة هذه التساؤلات الملازمة لك، التي عادة ما يصحبها قلق ورعب، فلا ينبغي ظلم النفس بأن تحملها فوق طاقتها وفوق تكليفها عندما تتصور وكأنك وحدك مستهدف بالسوء والضلال المبين بعد أن أحاطت بك الشياطين، أو أنك تتأرجح على حافة الهلاك، وتخشى أن تخطفك الطير أو تهوي بك الريح في مكان سحيق، أو أنك (رمز) الشر والشك في الكون ومن سواك هم (رموز) الخير والنقاء والإيمان واليقين والطهارة، كلا ثم كلا، فيك من الخير العظيم ما لو أنك أدركته لابتسمت، وبقيت مبتسمًا حتى تموت مبتسمًا سعيدًا بفضل الله.

قطعًا أنت لست شريرًا بتلك الصورة المجحفة، وليس وجودك بهذا الغموض السوداوي والخوف والتيه الذي تحدث به نفسك أحيانًا مهما كانت درجة إيمانك، ولئن

(١) أسس اليقين بين الفكر الديني والفلسفة، مجلة المعرفة، ملف العدد ١٧٤، تاريخ ١٠/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

وجدت فريقًا من الناس قد ضلوا، وهلكوا هلاكًا حقيقيًّا، فهذا أمر قدَرَه فوق طاقة البشر، حتى إن كان باختيارهم، ولست مسؤولًا عنهم بقدر ما أنت مسؤول عن إنقاذ نفسك بنفسك أولًا، وحرصك على ألا تكون منهم، علمًا بأنهم لا يشكلون نسبة معتبرة مقارنة بالسواد الأعظم من المؤمنين من الناس عبر التاريخ البشري، وكلنا مأمورون بالحيطة والحذر، ولكنك تخطئ عندما تظن بربك هذا الظن السيئ وأنت المحتاج إليه، وهو غني عنك تمام الغنى، عليك أن تعلم أن رحمته الواسعة لكل شيء لا يمكن معها أن تعيش أيها العبد الضعيف، بهذا القلق المفزع حول سر وجودك ومآلاتك بعد مماتك، عندما أذكرك ونفسي برحمة الله فإني أذكرك بخير مطلق متدفق على الخلق أجمعين لا يمكن وصفه، ولك أن تتخيل سعة رحمته، وهو يوصي الوالدين بأولادهما! تأمل جيدًا! هل يحتاج والد أو والدة أن يوصيهما أحد بولدهما! لولا أن الموصي أرحم منهما به، هذا الأحد هو الواحد الأحد (سبحانه) وهو أرحم بنا منهما يقول للوالدين: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ [النساء: ١١] إن هذا الرحمن الرحيم بنا هو الذي خلقنا، وأخبرنا، وطمأننا، ووعدنا بالرحمة والغفران، بل بالحياة الطيبة في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] ألا نستحضر هذا الخير العظيم، عندما تمر بأحدنا عاصفة عابرة من الوسوسة الزائفة؟

تذكيرك بهذه الطمأنينة الإيمانية لا يعني تقليلًا من شأن تعطشك لمعرفة أمور الغيب، ولا تساهلًا بتلك التساؤلات المتزاحمة على عقلك بصمت، التي ربما أقضّت مضاجع الأولين والآخرين الذين حاولوا الاقتراب من فك شفرة أسرار الوجود بعيدًا عن الوحي، فلم ينجحوا، ولم يطمئن، ويسكن إلى كل ما يتعلق بعلم الغيب سوى أولئك المؤمنين بالخالق، الذين صدّقوا خبره الواصل إليهم عن طريق الوحي، فارتاحوا، وأراحوا، وعاشوا بسعادة ويقين ورخاء واسترخاء، ولكن لا بد من وضع ما يدور في نفسك مهما كان حجمه في موضعه الطبيعي دون خوف، ولا بد أيضًا من طمأنة من يعتقدون أنهم هالكون لمجرد تعرضهم لهذه التساؤلات، وهم في حقيقة أمرهم مؤمنون بالله حق الإيمان، لكن يجب التصدي بشجاعة لهذه الرهبة السلبية القاتلة عند بعضنا من

المجهول في ذهنه مما هو ليس بمجهول حقًّا في عالم الواقع؛ كي نبقى على إيماننا ويقيننا سعداء حتى يأتينا اليقين الذي هو آتٍ على الجميع لا محالة.

إن أمر الإيمان بالله وفهم الوجود كله من حولك يسير جدًّا لو أنك أيها الإنسان، استشعرت حجمك الطبيعي بين الموجودات المعلومة فضلًا على غير المعلومة، وتأملت زمانك ومكانك ووجودك، ثم استسلمت، وسلمت أمرك لخالقك العظيم الذي لا ند له ولا شريك ولا شبيه، دون أن تكابر أو تجادل بغير علم في أمور لم ولن يدركها مخلوق، وبعدها قطعًا ستصل إلى الاستقرار الروحي، عندما تدرك أنك عبد ضعيف يموت، وفقير أمام سيده العظيم القوي المتين الحي القيوم القادر على كل شيء، أما صعوبة استساغة هذا الأمر على بعض العقول، فهي محصورة في أضيق مجال، حيث يُوجد الضالون في بيئة العناد والمكابرة التي بسببها سقط صانع الأصنام (آزر) مع أنه والد النبي إبراهيم، وللسبب نفسه أيضًا غرق (ابن نوح)، وهلك (أبولهب) عم رسول الله ﷺ، ومات (أبوطالب) على الشرك، وهم عند منبع الإيمان الصافي مباشرة، وأولئك هم الضالون الذين لم تنفعهم قرابتهم بمن يحملون مشعل النور البشري.

أنت لست رمزًا للشر، ولا عنوان الهلاك والضلال في هذا الكون، كلا، ولا أنت مادة الشك والتيه والريبة، بل أنت عكس ذلك تمامًا، أنت المؤمن المجاهد مع نفسك سرًّا ليتجلى لك اليقين المنشود وسط قلق واضح عليه، فأبشر واستبشر وأنت تعيش هذه المجاهدة بأنك في الهداية أصلًا، وسيهديك الله إلى طريقها بإذنه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأعظم سبيل من هذه السبل هو سبيل الهداية للإيمان الموصل إلى اليقين المطمئن، فسيهديك الله إليه على الرغم مما تحمله من همّ وقلق وخوف على إيمانك، فأنت السائر على خطى الأنبياء والمرسلين حتى لو سألت، وتساءلت بلا قيد ولا حد، سرًّا أو علانيةً، فلا يصدنّك الشيطان بوسواسه عن الحق، ولا تقدّمْ يسير شك قادم إليك من وراء الغيب على حقائق وبراهين قاطعة من اليقين[1].

*****

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٤٥٠.

إخبارٌ وليس استجداءً

من الضرورة بمكان - والخطاب موجه للنفس والعقل الباطني - بيان أن الاستطراد في توضيح هذا الأمر ضرورة لجميع الأطراف، وليس مجرد استجداء لك كي تؤمن أو تزداد إيمانًا، فهذا شأنك أنت في النهاية، وإن كنا نحب لك ذلك كما نحبه لأنفسنا، ولكنه كشف للحقيقة الإيجابية الماثلة في عالم الواقع، وإخبارك بأن الأمر في عالم الوجود هو كذلك، وهو أكبر منك بكثير سواء آمنت أو لم تؤمن، وأن الطريق المسلوك من قبل كل مخلوق هو واحد، وستسير فيه راضيًا أو راغمًا، وأنه لا خيار لك أصلًا في خلقك ووجودك وعدمك، فكيف بمستقبلك وغيبك؟!، تصبح مكلفًا في حياتك الدنيا بعد بلوغك سن التمييز والرشد، وينتهي التكليف والمساءلة عند خروج روحك أو فقدان الأهلية الشرعية، هذا فقط مناط المحاسبة لأنك تملك الاختيار فيه، أما بعد الموت فتبقى أمام الأحياء (كومة) لحم لا تملك أن تحركها، أو أن تدفنها لولا الفطرة أو ما تفضل الخالق به على الأحياء من تلك (القراريط من الأجر الموعود) لمن يقوم نيابة عنك بتصفيفها وتغسيلها وتكفينها وحملها معززة والصلاة عليها ومن ثم دفنها، ولولا هذه الرعاية الإلهية لك لأصبحت جيفة تنهشها السباع، تقضم أو تنثر عظامها هنا وهناك، فأين مكان ذلك الجبروت والعناد والمكابرة منك بعد موتك؟

نحن معنيون جميعًا بهذا الخطاب الرباني، وعبوديتنا لخالقنا والاستسلام له طواعية دون أي حرج في النفس ضرورة كونية لتوازن وجودنا والعيش بسعادة في هذه الحياة العابرة، إننا عبيد لله وحده هذه هي الحقيقة ولا سواها أبدًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥] والفضل للخالق العظيم الذي أخبرنا عن طريق السلامة، وأمرنا باتباعه، ووعدنا بالجزاء عليه، وحذرنا من طريق الهلاك قبل أن يجعل لنا الخيار والاختيار في أمر محدد وفي مقدورنا، وعليه جاء التكليف، وترتب الجزاء والعقاب، فرفع القلم عمن لا يملك الاختيار الصحيح من صغير ومجنون ونحوهما، ولم يحاسب من لم يبلغه الأمر، ولم يُحاسَب أحد عن أحد، بل هكذا يكون حكمه وحسابه وعدله

من الآن معلنًا في الدنيا؛ حتى لا يبقى لأحد حجة ولا عذر يوم الحساب: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

إنه إخبار صريح بأنك أيها الإنسان، مخلوق بقدرات محدودة، فمن الطبيعي أن تدخل في أزمة وأنت تواجه ما هو محاولة لتفسير وفهم ما هو أعظم منك من مخلوقات جبارة، وأن تجد نفسك أحيانًا في مأزق مستعصٍ جدًّا وأنت في مواجهة الحقائق الكبرى التي لا قبل لك بها، وإن كنت تحاول أن ترتقي معها مرتقى لم تخلق له ولا باستطاعتك خوض غماره، لا أنت ولا من كان قبلك ولا من سيجيء بعدك وفق تحدٍّ قائم إلى الأبد، خسرتْ رهاناته أمم وأباطرة وفراعنة من قبلك كانوا أشد منا قوة وآثارًا في الأرض، أفنوا أعمارهم وأموالهم لاهثين وراء البحث المضني عن سر هذا الوجود ومآلاته، وكان أكثرهم ينفر من الوحي، ويحاول عبثًا الوصول إلى المستحيل غيبيًّا بالحس والعقل، فلم يصل إلى شيء، حتى هلك، وأصبح أثرًا بعد عين: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا﴾ [مريم: ٩٨] وإن كانوا في قوة وجبروت وتمكين، فالذي خلقهم هو أشد منهم قوة، وما كان ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء، فاسمع قصصهم، واعتبر: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ٦- ١٤].

إن الكيّس الفطن هو الذي لا يفني عمره الثمين في خوض وجدال عقيم وهدر لوجوده لو كان ممن يعيش هذا العناد المتواصل دون أن يكون في مقدوره تقديم برهان على ما يحاول الوصول إليه، على فرض وجوده، ومهما طال به الأمر فمآله أن يتقبل النتيجة الحاسمة بأن الأنوف، جميع الأنوف، ستجد نفسها راغمة، وهي تواجه الحقيقة الكبرى، إلا وهي الاستسلام الكامل من الإنسان بضعفه إلى الخالق العظيم بقوته، الخضوع من الإنسان الذي يموت إلى الخالق الذي لا يموت، والإنصات إلى أمره ونهيه، يكفي برهانًا على عجز ابن آدم، وهو يرى الأحياء يدفنون جميع الأكابر الذين ماتوا دون رغبتهم، فلا يستطيع أن يفعل شيئًا.

إنه إخبار لي ولك بنعمة الإيمان، وليس استجداء؛ لأنه لا مكان لهذا الكبرياء والعناد المصاحب للشقاء من بعض الناس الغافلين عن مصيرهم القادم، يتفرجون على الساحة، وكأن الأمر لا يعنيهم، بل عليهم أن يتحولوا فورًا إلى الإيمان الصحيح مفتاح السعادة الأبدية، وليعيشوا العبودية المصاحبة للانسجام الكوني، الموجبة للتوازن الروحي والنفسي، لا بد من الصبر والتحمل والتواصي على هذا، ولنكسر هذا الكبرياء المزيف والإعجاب القاتل في العقل المعاند والمخلوق أصلًا من تراب ومآله للتراب، مستحضرين أن لحظة وجودنا في عالم الوجود لا تكاد تذكر لقصرها، وأن هذا الكون كان، وسيستمر بحركاته ودوران أجرامه وأفلاكه من بعدنا كما كان من قبلنا لمليارات السنين إلى أن يشاء خالقه وموجده، فيأذن بنهايته وقيام قيامته، وجميع الحصيلة العلمية والمعرفية للإنسان لا تشكل شيئًا يذكر، ولو في حدود عالمه الأرضي الضيق مقارنة بالمعرفية الكونية والعلوم التي لا يحيط ولن يحيط بها الإنسان مهما أوتي من قدرة، فكيف بعوالم الغيب وأسرارها وأهوالها التي لا يعلمها إلا من أوجدها سبحانه وتعالى.

ولكن على الرغم من هذا كله، تعلم أن هناك أمرًا (ما) يحتاج مني ومنك إلى مواجهة وتجلية، ومن حقك أخي المؤمن، أن يشاطرك المجتمع من حولك هذا الهم، ويأنس بك، وتأنس به، وليس من الوفاء الاجتماعي أن تُترك وحيدًا تواجه هذه التساؤلات الفكرية العاتية دون عِدّة وعتاد إيماني كافٍ نتعاون جميعًا في توفيره والتحصن به، لقد أخطأنا عندما صمت كل منا عن الآخر، وكبت ما في نفسه حينًا من الدهر في وقت ربما يصبح فيه الكلام واجبًا والبيان ضروريًّا، فاستوحشنا في حياتنا، كم كنا قساة في حق بعضنا والواحد منا يستجدي بلسم اليقين تلميحًا وتصريحًا، فلا يقابل إلا بالرفض والزجر أحيانًا أو بإجابة لا تفي بالحد الأدنى من التعطش المعرفي، دون أن ندرك سلبية ما قمنا به من صدود في غير محله، لربما أثر سلبًا في ديننا وإيماننا، كيف يبخل أحدنا بمد طوق النجاة إلى الآخر، بل ربما يقابل من يخاف على إيمانه بالتقريع وطلب التوبة دون أن نملأ فراغ سؤاله بما نعلمه من حق، أو نجعل من استفساره سبيلًا لوصولنا ووصوله إلى الحق المنشود من الجميع للجميع، بحيث يسدد بعضنا بعضًا، ويستدرك بعضنا على بعض، ونتعاون على البر والتقوى، كما أمرنا شرعًا، فيا لها من قسوة! كيف نحجب ما وصفه الله بالنور والهدى والشفاء لما في الصدور والسراج المنير والصراط المستقيم ورحمة للمؤمنين؟

لم ندرك خطأ هذا الجفاء هذا إلا عندما بلغ السيل الزبى، وفاض الكيل وطفح، وتحدث الناس من حافة منصة الهاوية، وأصبحت كلمة (الإلحاد) تتردد على ألسنة بعض الناس، فأصبحت (أزمة نفسية) تتخطف من حرموا الحصانة بالإيمان على بصيرة، لهذا أدعوك معي إلى حيث الأنس الرباني، فالأمر كله خير لي ولك، أحتاج إليك، كما تحتاج إليّ على حد سواء، قطعًا لم يكن هذا القلق من ديننا الذي هو دين الطمأنية والهداية والنور، ولكنها قسوة الأعراف والتقاليد والطباع البشرية القاصرة القاسية، وحاشا لله ألا نجد في دين الرحمة ملاذًا آمنًا نطمئن إليه، ومع رسول الرأفة الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وبقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

*****

هل الأزمة حقيقة أم ظاهرة؟

إذا كانت هذه حال البشر مع الإيمان بمن فيهم أنبياؤهم، وهي حالة مستقرة متوافقة مع طبيعتهم، ولا تتعارض مع هذا السيل الجارف من التساؤلات والاستفسارات عن قضايا الوجود، فقل لي بربك: أين تكمن المشكلة؟ قليل من التفكير والتأمل الهادئ سيقودك إلى حقيقة واحدة مفادها أن حالات القلق ظاهرة إيجابية في نهاية الأمر؛ لأنها ناتجة من زيادة الحرص والخوف على الإيمان الموجود أصلًا في نفوس القلقين عليه، ويزداد الأمر وحشة مع غياب العالم أو المفكر الحاضر دائمًا في المسرح العام الذي يملك القدرة على استخلاص بلسم الشفاء من النصوص الشرعية وتقديمه للمحتاجين إليه، وحتى مع غياب هؤلاء يبقى الأمر سهلًا ومريحًا، عندما تتذكر أنك في دار الابتلاء والامتحان الرباني، وأنك مأجور بفضل الله على كل شيء تهتم فيه بما في ذلك خوفك من الضلال واحتياطاتك الدفاعية لحماية الإيمان والإمساك به، وأن هذا الذي يحصل معك هو المطلوب أصلًا في الدنيا لكي تجزى عليه الجزاء الأوفى بإذن الله، وهذه درجة عالية من الإيمان واليقين توجب الشكر والسعادة، تختلف تمامًا عن حال من يرى الأزمة

بذلك الحجم السوداوي المخيف الذي تضخم لديه لمجرد حدوث التفكير البشري الطبيعي المنسجم مع كون المرء عاقلًا رشيدًا يتلمس ما حوله حسًّا وعقلًا.

ومن هنا ندرك أنه في الحقيقة لا توجد مشكلة مستعصية أصلًا إلا في عالم الظاهر فقط، وأنك بفضل الله تقف على قاعدة إيمانية صلبة راسخة، تذكّرك بكل ثقة بأنك وإن كنت تظن أحيانًا أنك على حافة الهاوية من الضلال بما يلوح لك في الأفق العارض أحيانًا من تساؤلات منطقية، فإنك في الحقيقة غارق في النعيم الإيماني المحض الذي تحسبه جحيمًا لخوفك وتخوفك من تبعاته، بينما هو الإيمان الحق بصموده وثباته ومجاهدة نفسك للحفاظ عليه، ولو لم يكن ثمينًا وموجودًا في ضميرك متأصلًا في فطرتك السليمة لما قلقت كل هذا القلق على انفلاته، وخشيت على زواله، وحتى لو لم تقتنع بهذا التشخيص، فستجد ما يكفيك من الأنس بحال الأنبياء، بل ومع أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وهم يسألون الله الأكبر عن أكبر مما أنت عنه تسأل، وكما ذكرنا آنفًا إنهم لم يكونوا يسألون الناس، بل يتوجهون إلى رب الناس مستفسرين، مفتقرين إلى تثبيته لهم، أفلا يكون من دونهم أحوج منهم إلى ذلك؟ ألا يكون أصحابهم ومن بعدهم التابعون لهم وتابعوهم أحوج بكثير ممن سبقهم؟ ونحن الأحوج من بينهم جميعًا إلى ذلك، أرأيت كيف أن الوضع طبيعي جدًّا لا يستوجب كل هذا القلق والخوف؟!

ولكي تتخلص من أوهام الأزمة الظاهرية لا بد من إعادة طريقة تفكيرك في هذا الأمر ومعرفة أسباب الأزمة والحيطة منها، لا بد من الخروج فورًا من هذه المآزق المترهلة من القلق الخيالي، وتلك مشكلتك أنت من الداخل، فتخلص منها بقرار شجاع، وحينما أقلل من أهمية عبء هذا التفكير الذي يغشاك أحيانًا، فيشعرك بضعف الإيمان، إنما أتحدث معك عن حقيقة إيمانية واقعية موجودة أصلًا، أقررها ولا أزورها، وحتى لا يكون الأمر بعيدًا عن الواقع العملي تعالَ معي إلى استراحة قصيرة لننظر ماذا حدث مع من كانوا أقرب الناس إلى الرسل إيمانًا ومكانًا وزمانًا، وأعني بذلك أصحابهم وحوارييهم ممن تلقوا الوحي منهم مباشرة، ولأنهم مثلك وأنت مثلهم وأنا مثلكم في التفكير، فقد مروا بما تمر به من مشاهد واستفسارات، استوقفتهم كما استوقفتك اليوم، حتى تعلم أنك طبيعي، ألم يتكلم الصحابة ﷺ عند رسول الله ﷺ بما في نفسك الآن؟ ويسبقون كلامهم بمقدمة (وجل وتخوف) هي تجول في صدرك، لا أقول أحيانًا بل

في هذه اللحظة وأنت تقرأ هذه السطور، لقد قالوا للرسول المصطفى ﷺ: «**إننا نجد في أنفسنا ما نتعاظم أن نتكلم به!**»، لقد قالوا ذلك، وهم على البراءة الفطرية، وبين ظهرانيهم أفضل الخلق، ولم يتأثروا بكتب الفلاسفة اليونان والرومان والفرس ولا يوجد بينهم متكلمة ولا قنوات فضائية ولا (إنترنت) تمطرهم بالشبهات والوساوس ليل نهار، وليسوا ضحية انفتاح غير منضبط على الحضارات، كما هو الحال اليوم، ولم يتعرضوا لمثل ما نتعرض له من طوفان وعواصف وأعاصير فكرية هائلة مما يحتاج منك إلى مزيد من الصبر كي تفوز بجنات ونهر من جراء هذه المجاهدة والصبر.

*****

كذب (الملحدون) وما صدقوا

عندما تدرك أنك لست وحدك في هذه الأجواء الفكرية الفطرية، وأن لا مشكلة توجب كل هذا التخوف من نقيض الإيمان، فهذا لا يعني نفي وجود الغبش الطارئ وتبسيط المسألة أو التساهل في السيطرة على تطاير الأفكار في كل اتجاه، كما يحدث أحيانًا لمن فقدوا بوصلة الطريق مؤقتًا بحسن نية، وهنا يكمن موضع التذكير والتثبيت والأخذ باليد إلى شاطئ الأمان، وهو الذي تدور حوله المحاولات الجادة لضبط البوصلة بالاتجاه الصحيح، وعلى الرغم من كل ما سبق من تطمينات إيمانية فالواجب أن تحتاط لنفسك بنفسك دائمًا بالتمسك بإيمانك والمحافظة عليه دون أدنى قلق من محاولات الاختراق النفسية التي تتعرض لها في حياتك، ففي الوقت الذي أدعوك إلى الثبات على الحق الذي أنت عليه، فإني أيضًا أذكرك بألا تكترث بما حولك من تضخيم مبالغ فيه لظاهرة الإلحاد، وحذارِ حذارِ أن تعصف بك الرياح الزائفة عند بعض من يدعون اعتناق المذهب الإلحادي الزائف أيضًا، ولا يستخفنّك كلامهم وزيف دعواهم؛ لأنهم في نهاية المطاف كذابون مع ذواتهم[1]، يقولون في حالة الاسترخاء النفسي ما يتعارض

(١) نعم، إنهم كاذبون ويعترفون بذلك أمام أنفسهم لكنهم يصرون على ادعاء الإلحاد في الظاهر ولا يستطيعون كبت الحقيقة من داخلهم قيل لأحدهم: هل أنت متأكد أنك ملحد؟ فقال: (والله العظيم إني ملحد!) وآخر بدأ مناظرته بقوله: (السلام عليكم ورحمة الله!) ويكفي تناقضهم أنهم يدعون أن الوجود خلق من غير خالق ويصرّون على ذلك ولا يقبلون أن يوجد الخالق من غير خالق!

مع مواقفهم في حالات الامتحان العملي، وإن كانت تافهة، فما يقولونه في وادٍ، والحقيقة التي يعيشونها في وادٍ آخر، إنهم كما وصفهم الله تعالى بأنهم لا يكذبونك، ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون.

هل سمعت قصة انتحار الدكتور (إسماعيل أدهم)[1] الذي يوصف (بالملحد) لشدة إصراره عليه؟ حتى قال عن نفسه في حياته: «درست في الاتحاد السوفيتي، وتنكرت للأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي، وصرت أسعد حالًا وأكثر طمأنينة عن حالي، عندما كنت أغالب نفسي»، هذا ما كان يدعيه علانية، فماذا كانت النتيجة؟ وجدت جثته عام ١٩٤٠م على سطح مياه بحر الإسكندرية وفي جيبه ورقة موجهة للنائب العام وبخط يده يؤكد فيها انتحاره زهدًا في الحياة الدنيا وكرهًا لها، ويطلب إحراق جثته وعدم دفنها في مقابر المسلمين! فأين تلك الطمأنينة المزعومة، وهو شاب لا يزال في الثلاثين من عمره؟[2]، وهذا ملحد آخر يقول مكابرًا: «إني مستعد أدخل النار بحريتي، ولا أدخل الجنة عبدًا للإله!»، بينما اتضح أن رفضه للعبودية هذا لم يكن اعتزازًا بالحرية، كما يزعم لأنه عندما راسل صديقته ختم الرسالة بعبارة: «أنتِ معبودتي!»[3]، وعندما حضرت الوفاة (جان بول سارتر)[4] مؤسس الفلسفة الوجودية الإلحادية طلب من شريكة حياته أن تدعو له قسيسًا، فاستغربت منه هذا الطلب الذي يتعارض مع تاريخ عمره الذي أفناه في رفض الأديان، وقالت: سأطلب لك كاردينالًا (أعلى رتبة من القسيس)، فاستشاط غضبًا، وقال: «لا أريد

---

(١) إسماعيل أدهم (١٩١١- ١٩٤٠) الموافق (١٣٢٩- ١٣٥٩هـ) كاتب مصري ولد من أم نصرانية وأب مسلم كان يعامله بكل قسوة وعجرفة كما ذكر ذلك في كتبه نال درجة الدكتوراه من جامعة موسكو في العلوم له مؤلفات يعلن فيها أسباب إلحاده مات منتحرًا عام ١٩٤٠م: (وهم الإلحاد، تقديم: محمد عمارة، عمرو شريف، الأزهر، (١٤٣٥هـ)، ص١٢٨).

(٢) وهم الإلحاد، تقديم: محمد عمارة، عمرو شريف، الأزهر (١٤٣٥هـ)، ص١٢٦.

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٨.

(٤) جان بول سارتر Jean- Pual Sartre (١٩٠٥- ١٩٨٠م) الموافق (١٣٢٣- ١٤٠٠هـ) فيلسوف فرنسي نشأ يتيمًا بين أمه الكاثوليكية وجده البروتستناتي عمل أستاذًا للفلسفة في الهافر يطبق على نفسه علم النفس الوجودي وأصيب بالعصاب الحقيقي عام ١٩٥٣ ثم شفي منه: (معجم الفلاسفة باب (الفلاسفة المناطقة المتكلمون اللاهوتيون المتصوفون) جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م، ص٣٤٩).

كارديناًلا، إنهم يغشون الإله، أريد قسيسًا متواضعًا من قرية مغمورة»! فجاءته بقسيس، فاعترف له بخطيئته وندمه طمعًا في النجاة[1]! فأين كان إلحاده المزعوم طيلة عمره الذي أفناه ليطلب في آخر لحظة اللجوء مختارًا إلى الرب والدين؟!

هذه بعض الأمثلة من قصصهم المعبرة عن حقيقة ما يكنونه في عقولهم الباطنة، أسوقها هنا تنزلًا عند حجج الخصوم، ودحضًا لادعاءاتهم الباطلة، ولو وضعنا الأمر في نصابه الصحيح العادل في هذا الوجود فلا ندري بأي وجه نقابل ربنا ونحن نخوض مع الخائضين فيما لا حجة فيه ولا يقين، فلا تكافؤ ولا تساوي ولا تقارب، بل إن استخدام كلمة (طرفين) سوء أدب وتجاوز في حق الله الأعظم أمام أحد من خلقه الضعفاء الفقراء، هذا ونحن بين يدينا أعظم الأدلة والبراهين وأقواها وهو كلام رب العالمين، ورب السماء والأرض، إن الأمر في حق الله لمختلف جدًّا جدًّا، فلنتأدب مع الخلاق العظيم، لا أقول: إن الفارق بين الخالق والمخلوق لا يسمح بمجرد التفكير في المقارنة، بل أقول: استحالة المقارنة أصلًا، تجعل العاقل الرشيد يستحضر عظمة الرب وملكيته المطلقة للوجود كله، فيستحيي منه حق الحياء، ويوقن تمام اليقين أنه لا يليق بمقام الربوبية الأعلى أن يكون وكأنه رهن الطلب والإشارة من قبل أي مخلوق ضعيف أدنى في كل مناسبة جدلية، يستجيب لكل نداء مباشرة وعلى الوجه الذي يحدده ذلك المخلوق، ويقبل التحدي من أي طرف، حيث لا يرد التحدي أصلًا من الأضعف، فإذا حدث هذا في حواراتنا فهو تجاوز غير مقبول، بل فيه نظرة دونية للرب الأعلى، وافتراض الندية مع خلقه، وهذا مستحيل محال وفق جميع القواعد العقلية والمنطقية فضلًا على الشرعية: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

تخيل إلى أي مدى وصلت الجرأة بالإنسان الجهول على ربه وخالقه، فعلى الرغم من قصر أجل الإنسان وضعفه وهامشيته الضيقة في الوجود الفسيح، وفقره الشديد إلى ربه الغني الحميد، وضعفه إلى ربه القوي العزيز، وجهله بنفسه فضلًا على ما حوله وما لا يعلمه من عوالم لا متناهية في الوجود، فهو يدعي ويقرر، ويفترض، وينفي، ويثبت من تلقاء نفسه، ويخوض متخبطًا في أمور فوق مقدرته وطاقته، يفعل كل ذلك وكأنه

(١) وهذا إقرار منه بالدين بغض النظر أحق هو أم باطل: (رحلة عقل، شريف (مرجع سابق)، ص١٥٠).

ينازع خالقه العظيم الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، ومن يسجد له ما في السماوات وما في الأرض، وهو سبحانه قد خاطبنا وهو غني عنا، كل ذلك تكرمًا وتفضلًا وتنزلًا، إلا أننا مع كل أسف لم نقدر هذا التنزل حق قدره، خاصة عندما ندرك ضعفنا وحاجتنا إليه في حالات الخوف أو المرض أو الموت بل في كل أوضاعنا وشؤوننا.

*****

إذا ضاقت بك فتذكر رحمة الله

ما أجمل هذا الوجود وأسعده بمعية الله تعالى واليقين برحمته، وما أقبحه وأوحشه في غياب الإيمان بالله مع سوء الظن!، لا يخلو هذا الوجود من مفرحات ومبشريات ومن أجملها استشعار رحمة الله الواسعة التي لا تضيق عن شيء على الإطلاق، كلنا يستشعر هذه الرحمة ونحن نغوص معك فرحين في أعماق طمأنة الرب ﷻ لعباده، بعد أن هداهم للإيمان، ووعد بأنه لن يضلهم بعد إذ هداهم، فالرحمة من أعظم صفات الخالق الرحمن الرحيم، ومن رحمته أن جعل هذا الإيمان موجودًا لديك بحمده ومنّته، والدليل على ذلك قلقك عليه ومواصلتك القراءة في هذا المجال لحفظه، ها أنت هنا تحديدًا تواصل القراءة؛ لأنك متعطش لشيء ما، لا تستطيع إنكاره، أنت تقرأ طمعًا في الوصول إلى أشياء قد تكون رسمتها في خيالك هدفًا معرفيًّا قبل القراءة، نعم، أنت الآن تواصل قراءة هذا الكتاب مشدودًا إلى نهايته مشتاقًا للمزيد منه ومن غيره لكي تجد شيئًا يملأ فجوة فراغاتك الاستفهامية الطبيعية، تريد ردمها بفكر سليم صحيح، وبإجابات مقنعة مطمئنة، وهذا هو الحرص على بقاء الإيمان الذي لا تضره الوسوسة، ولا تزحزحه الشكوك، إنه الإيمان الذي يدفعك بهذه القوة نحو البحث بجدية وشغف عن شيء ثمين، أو أن تحافظ على ثمين موجود لديك أصلًا، إنه لا شيء سوى حقيقة وجود ذلك الإيمان الضروري فطريًّا، والمتعمق في عقلك الباطني ليوازن وجودك المادي والمعنوي حتى في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة.

إني أبشرك ثقةً بوعد الله لنا بأنك بخير ما دمت بهذا الحرص الواضح على تتبع أي مصدر يروي عطشك المعرفي الإيماني، كهذا الحرص على مواصلة قراءة مثل هذه

المؤلفات الفكرية، وهذا التوجه بحد ذاته أوضح دليل على أنك مؤمن تسهر ليلك، وتقضي نهارك لصيانة طريق الإيمان الذي تعرف معالمه من أوله إلى آخره، إنك تقرأ لتحافظ على ما عندك، وتبرهن عليه، ولست بصدد اتخاذ قرار إما هنا أو هناك، ومن ثم، فأنت مهموم وغيور عليه، ولا خيار لك إلا أن تكون كذلك، وأن تقر بذلك، وأن تحمد الله على ذلك، فكن شجاعًا أمام هذه التساؤلات وواثقًا من نفسك، وانتفض فورًا لنسف الأوهام والوساوس الطارئة على تفكيرك، وامسح تلك الصورة السوداوية المترددة في مخيلتك عن نفسك، فلا تظلمها هذا الظلم الجائر، فتعذبها بالوسواس والقلق، بينما هي والحمد لله مؤمنة زكية حقًّا تقف شامخة بإيمانها الراسخ خلف جدار وهمي من التساؤلات الفطرية الطبيعية العابرة، تذكر أنها نفس مؤمنة يرجى لها كل خير على الرغم من التقصير.

يجب أن يكون هذا موقفك تجاه تحديات الوجود، لا لشيء إلا لأنك الإنسان الذي يعقل، ويفكر، ويتدبر، ويطيع ربه وخالقه وموجده الذي أمره بذلك، وتعالى ربنا الرحيم الرحمن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] أن يكون (قاسيًا) على خلقه الضعفاء، وهو أعلم بحالهم، حاشاه سبحانه أن يبقيك تفني عمرك وحيدًا طريدًا في تيه القلق الدائم والأفكار السوداوية المظلمة التي لا تعرف مبتداها ولا منتهاها، وهو يعلم صدق حرصك على إيمان راسخ ويقين دائم، أليس هو القائل سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

من الخطأ أن يقلق المرء من حساسية التعامل مع الغيبيات التي يكفي الإيمان بها على الصورة التي جاء بها خبر الوحي، علمًا أن هذا النوع من الإيمان له مقام عظيم وجزاء كبير عند الله؛ لأنه تكليف خاص يترتب عليه جزاء خاص أيضًا، ولا يرقى إليه بالتكليف سوى هذا الإنسان الذي فضله الله على بقية خلقه بهذا العقل، وأن الجنة هي أعظم جزاء لأعظم امتحان بالإيمان بالغيب، ولولا هذه الأفضلية لما خاطبنا القرآن بالثناء المميز، عندما وعدنا بالأجر الكبير لمجرد أننا آمنا بالغيب الذي لا سبيل إلى إدراكه بحواسنا لولا أن بلغنا خبره عن رسوله ﷺ، فصدقناه دون أن نراه أو نسمعه

أو نلمسه حسيًّا، فكان هذا الوعد بالجزاء الكبير من الخالق الكريم ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وكان دخول الجنة بسلام من الرحمن هو جزاء أولئك الذي يخشونه بالغيب أيضًا: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٣- ٣٤] ولهم البشرى في الدنيا وفي الآخرة: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤] وكان هذا الإيمان بالغيب مع الخوف المحمود من أسباب ثناء الله على المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

*****